Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغرناطى» الذى مات كمداً لأسر أولاده «سنة ٦٣٧ هجرية» (١).

فلا عجب أن أقفرت البلاد من النشاط العلمى وركدت حركة التأليف وجف معين الإزدهار فى شتى العلوم والفنون، واستكانت اللغة العربية، وذوت نضارتها، وتلك نتيجة طبعية لبلبلة الأفكار وتشريد العلماء، ومحو آثار السابقين منهم بإحراق الكتب وإغراقها وغير ذلك مما سلفت الإشارة إليه.

تلك هى حال الأمة الإسلامية فى المدة التى سبقت عهد ابن هشام وسايرته وامتدت آثارها بعده تقص علينا أن المسلمين كانوا فى بعضها يخضعون لمن لا يمت إليهم بسبب ولا تربطه بهم لغة ولا دين.

ولما كان الإسلام صبغة المحكومين والقرآن مرجع أحكامه وقانونه المكين اضطر الحاكم فى سبيل قيادة هذه الشعوب أن يجعل للقرآن وعلومه المكان الأول، ولولا ذلك لكَبَت العربية كبوة لا قيامة بعدها، وقد تضافر عليها وأصابها ما أصابها من مضاعفات لم تقف عند لغة التخاطب بل جاوزتها إلى لسان الحكومة الرسمى، فكانت فى بعض الممالك هى اللغة المغولية، أو الفارسية، أو التركية، ولكن العربية مع ذلك ظلت لغة التأليف والأدب، وتلك عناية الله بلغة قرآنه ﴿إنَّا نحن نَزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩].

حفظ النحو فى مصر والشام فى القرن السابع

إذا صح أن النحو كاد يصوح وأوشكت البلاد الإسلامية إلا قليلاً منها أن تصفر من اللغة العربية، وهو ما ألمعت إليه آنفا، فإن مصر ـ كما أسلفت قبل ـ كانت مثابة للناس وأمنا، والشام ظلت معها حينًا من الدهر فى حوزة المماليك الذين كانت حكومتهم أقوى حكومة إسلامية فى أيامهم، فنعم القطران فى ظل حكومة المماليك بالدعة والسكون، وصارا أخصب تربة مسح عليها غيث الملوك وغمرها سيب الأمراء، وكان ذلك مغريًا للعلماء أن يشدوا إليها الرحال، وأن يعقدوا عليهما الآمال، والمورد العذب كثير الزحام.

وقد آن لى أن أميط اللثام عن سر إقبال زعماء المماليك وإقبالهم على النهضة بالعلوم والأخذ بيد العلماء وتشجيع المؤلفين وإمدادهم بالمال الوفير، وإن لم يكن لهم فى العروبة نسب وخير.

---

(١) بغية الوعاة ص ٤٩ .